جداريات شعرية في قصر الحمراء
- دراسة تحليلية –

أ.د. حميدة صالح البلداوي*

باعث الدراسة:

قصر الحمراء يعد بحق أهم ما خلفه العرب في الأندلس من صروح عمرانية ، فهو معلمة حضارية تتيح للباحثين من أدباء ومفكرين وفنانين فرص التأمل والبحث في معطياته العمرانية والجمالية . ولقد اخترنا في دراستنا هذه تتبع اثر الفن العمراني في الشعر الأندلسي وكان هذا القصر شاهدنا البحثي وقصائد (ابن زمرك محمد بن يوسف ألصريحي ت ٧٩٧ هجري) شاعر الحمراء [١] ميداننا التطبيقي ، فهو الذي نقشت قصائده ومقطوعاته على أبوابه وأطواقه ونافورة الأسود فيه ، وهو الذي شبه هذا القصر بالتاج على جبين غرناطة [٢] و به وبنهره المطل عليه (شنيل) يباهي ويفاخر[٣] . والقصر عجيبة من عجائب الفن المعماري فهو أشبه (بمدينة متكاملة)[٤] .ولنا أن نتساءل أكانت أشعار (ابن زمرك)المنقوشة على معالم هذا القصر وجنة العريف جداريات أراد لها البقاء بعد إن اذنت النهاية الحزينة بالسقوط !! أم معلقات قصد بها التنويه والتعظيم أكبار وتمجيدا لمآثر حكامهم وشعبهم !!

إن نظرنا إليها وهي ممتزجة بالبناء وجدناها أشبه بمدرسة في فن التصوير والرسم و وان تعاطينا صورها الشعرية ممتزجة بالمشاعر ألفيناها نقوشا يمتزج الفخرفيها بالألم ، وليس ببعيد عن الأندلسي هذا التوجه ، فلقد عودنا على إعطاء صورة (عن حياته الحضرية ، وتفاصيل عن دقائقها حين عبر بشعره عن بيئته ووصف مقتضياتها الحضارية حتى لقد نقشه على الجدران وحمالات السيوف ...)[٦] وغيرها من الأدوات وابن زمرك يستثير مخيلة المتلقي صاحب الذائقة الجمالية كي يستجيب لهذا الجمال الفريد ، ويشاركه هذه المتعة الفنية يقول –فأنظر جمالا يستفز ذوي النهى –ديوان :١٢٧ وحين يستميله بعرض ملامح هذا الأثر المعماري فانه يبهره بأجمل اللوحات ويجعل نظره التخيلي وفكرة المتأمل مقيدا لا يبرح ما صوره له يقول الشاعر :-

منازل فيها للعيون منازه تقيد منا الطرف أو تعقل العقلا

وبصورة تعجبية حاول الشاعر إن يرينا ما ليس مألوفا أو معتادا بصيغ غير قياسية .وقد تأتي مفردة التعجب صريحة كما في قوله وقد نقش على قوس الطاق :

لست وحدي قد اطلع الروض مني عجبا لم تر العيون مثاله [٧]

أو فوق طاق البهو من القبة الزجاجية :

وأبدى بها أفق الزجاج عجائبا تخط على صفح الجمال وتستملى

أو يأتي التعجب بصيغة انبهار :

لله مرقب تاجي من فوق تاج السبيكة [٩]
كأن شكلي مصوغ من النضار سبيكه

كما يحيلنا الشاعر معجبا إلى مهارة من أقام هذا البناء وما تميز به من حذق وبراعة وهم أهل الأندلس : -

فانظر بأندلس بيوت قصورها ولأهلها الإتقان والتحصيل [١٠]

والفخر بالعمران ومن بناه يأتي من كونه ينطق بالجلالة مع جلالة الملك وبان قدره من قدر من شاده

إن الجلالة في المصانع أذنت ان الذي قد شادهن جليل

هذه الإشعار الناطقة بسور الجمال جعلتنا نعذر ذلك الضرير الذي أطلق صرخته بحزن بليغ وهو يزور الحمراء برفقة أمه قائلا : (ليس هناك الم يقاس بضرير في غرناطة) [١١] .من هنا جاءت الدراسة لتقصي مواضع الجداريات واثر الهندسة العمرانيه والجمالية فيها .

(مدخل تعريفي بقصر الحمراء)أو القصر العربي Dalacio Arabe

أكثر من خمسة قرون مضت على سقوط الحكم العربي في الأندلس (٨٩٧هجري ١٤٩٢م) وما زالت الحمراء عنوانا لمجده ،فما بدايته ومن أنشأه وأكمله ؟نستعين بما كتبه (محمد عبد الله عنان)في كتابه القيم (نهاية الأندلس) لنقدم موجزا عن هذا الأثر المعماري[١٢] يعود تاريخه إلى القرن الرابع للهجرة وقد بدأ قلعة متواضعة على ضفة نهر حدرة ELDarroo تسمى قلعة الحمراء ،انشأ حولها الحاكم البربري (بأديس بن حبوس) سورا حين جعل غرناطة عاصمة لحكمه ، وحين تسلم (بنو الأحمر) ٦٣٥ هـ السلطة انشأ (محمد بن الأحمر) فوق هذا الموقع حصنه أو قصره الذي أطلق عليه اسم (الحمراء) وجعله قاعدة الملك . إما لماذا سمي بالحمراء فهناك جملة تفسيرات :

١-لان هذا القصر شيد فوق أطلال قلعة الحمراء القديمة

* قسم اللغة العربية- كلية التربية للبنات – جامعة بغداد

٢-لان أبراجه الشاهقة كانت حمراء
٣-لون المشاعل الحمراء التي كان يجري البناء ليلا على ضوئها
٤-لان أسوارها تقرب إلى الحمره (وهي في معظمها مبنية بالتابيا وهي مزيج من الصلصال والجير والحصباء)[١٣]

ويذهب (عنان) إلى الرأي الأول [١٤] ويبدو الرأي الأخير متوافقا معه وقد شغف بنو الأحمر بهذا اللون فكان اختيارهم له لونا لرايتهم يقول الأمير الشاعر يوسف الثالث مفتخرا:-

لنا الهضبة الشماء سامية الذرى لنا الراية الحمراء يهفو بها النصر[١٥]

وطروس الدولة التي تعقد فيها المكاتبات كانت حمراء يقول ابن زمرك :

مفاتيح أرزاق العباد بكفه ويودعها حمر الطروس مسجلا [١٦]

أول من بناه إذن محمد بن الأحمر ثم انشأ بعده أبنه (الغالب بالله محمد الفقيه) الحصن والقصرالملكي وابتنى الحفيد الغني بالله مسجداً بديعا في الجنوب الشرقي حول بعد السقوط الى كنيسة (سانتا ماريا) .إما الأبهة والفخامة الرائعة فتعود إلى (يوسف الثالث أبي الحجاج الملك الشاعر ، فقد أكمل بهو (قمارش)والبرج الشاهق ((واسبغ عليه روائع الفن والزخرف وانشأ العقد الشاهق الذي يكون مدخل القصر الرئيسي وهو المسمى باب الشريعة)[١٧] ويبلغ ارتفاعه خمسة عشر مترا . أما أقسام القصر فهي : القسم الأول قصر قمارش وهو المجلس الرسمي للدولة أي مجلس العرش ويسمى أيضا (المشور) ويضم البهو وقاعة الأختين والبرج ، والثاني قصر السباع ويتوسطه بهو الأسود ونافورته الشهيرة .ولم يبق اليوم من قلعة الحمراء إلا الأسوار الخارجية ، وأبراجها ، وإما القصر الملكي فقد بقيت معظم أجزائه ولقد تعرض منذ سقوط غرناطة إلى أعمال تخريب وتشويه وترك زمنا طويلا مهملا حتى عادت الدولة الاسبانية إلى ترميمه وإصلاحه وتجديد زخارفه ونقوشه ، وسوف يظل بحق (أكمل نموذج للفن الأندلسي في تطور ه النهائي بعد تحرره من اثر الفن البيزنطي[١٦] ومحط أنظار الزائرين المتطلعين الى تامل معالم ما تبقى من اثار مجد العرب واستيحاء ماضية من رقى وحب للحياة ورهافة ذوق وحسن فني عال.

مواضع الجداريات

تتحدد مواضع أشعار ابن زمرك التي نقشت على مواقع هذا القصر في الآثار الآتية :(قباب القصر وجدرانه) (طبقان أبوابه الخشبية والحجرية) (رخام نافورة الأسود) وهي جميعا تشكل (تعسا وعشرين مقطعة)[١٩]

أولا- القصر:

أول ما يرى الزائر فيه الساحة المعروفة بفناء البركة أو فناء الريحان وهو (فناء كبير مستطيل مكشوف تتوسطه بركة من الماء تظللها أشجار الريحان ، ثم بهو صغير يفضي إلى أعظم أبهاء القصر وهو بهو قمارش أو بهو السفراء [٢٠]. وأروع ما فيه قبته الشاهقة التي احتفظت بنقوشها الأصلية وكررت فيها عبارة (عز لمولانا السلطان أبي الحجاج)وشعار بني نصر (ولا غالب لا الله)فمن جداريات ابن زمرك الشعرية قصيدته التي نقشت بالقبة الكبرى هذه وهي في (٢٤ بيتا) تقسمت لوحاتها على وصف الروض والقبة والبهو .ولان الروض يتقدم البناء فقد جعله مطلعا لقصيدته ومتحدثا بلسان حاله قائلا :

أنا الروض قد أصبحت بالحسن حاليا تأمل جمالي تستفد شرح حاليا [٢١]

وافرد له أجمل لوحة في تصوير جماله النضر وجوه العطر ومغناه الأسر

ولم نر روضا منه انعم نضرة وأعطر إرجاء واحلى مغانيا

وذلك حين عقد صفقة مقايضة بين النسيم وبينه وكان الحاكم قاضي الجمال أد حكم بالتكافؤ فحين يهب النسيم مع الضحى يهديه الروض زهور النور البيض كالدراهم الفضية وبالمقابل فان النسيم بهباته يحرك الأغصان وباهتزازها تتسلل شعاعات الشمس بضيائها وكأنها دنانير ذهب تضي العشب والمكان وهذه الهندسة الجمالية فيا تناضر وتواز ، ولقد ختم القصيدة بهذه اللوحة الروضية كما بدأها بها وذلك في قوله :

مصارفه النقدين فيه بمثلها أجاز لها قاضي الجمال التقاضيا
فان ملأت كف النسيم مع الضحى دراهم نور ظل عنها مكافيا
فيملأ حجر الروض حول غصونها دنانير شمس تترك الروض حاليا

إما القبة فحسنها خفي وظاهر وهي تختص بكونها شاهقة العلو يقول الشاعر :

به القبة الغراء قل نظيرها ترى الحسن فيها مستكنا وباديا
تمد لها الجوزاء كف مصافح ويدنو لها بدر السماء مناجيا

وأما البهو فيشتق له من أسمه نعت البهاء وهو على شكل (مستطيل طوله ثمانية عشر مترا وعرضه احد عشر..... وفي هذا البهو كان يعقد مجلس العرش ولهذا سمي أيضا بالمشور) [٢٢] وأروع ما في هذا البهو زخارف قبته التي مازالت محتفظة بنقوشها إلى ألان ومن خصائصه الهندسية العلو والاتساع

بها البهو قد حاز البهاء وقد غدا به القصر أفاق السماء مباهيا [٢٣]

ويصف ناديه الفسيح واتساع افقه قائلا :

فلم نر قصرا منه أعلى مظاهر وأوضح أفاقا وأفسح ناديا

وحين يبالغ في وصف علوه فانه يستعين بشاهد قراني كريم قائلا :

فلقد رفعت بدار خلد زخرفت يرتد فيها الطرف وهو كليل[٢٤]

أما نقوش جدرانه فقد توزعت على نقوش بالحجارة وبالخشب فعلى الأطواق مثلا هناك مقطوعات قصيرة تتفق ومساحة النقش على كل جانب ، ويكرر في النقش الخشبي ذكر (الإبريق) ودلالته . كما نقش شعره على طيقان البهو من القبة بمقطعات وقصائد قصيرة فمن الأولى قوله :

نال ابن نصر بهذا القصر ما اقترحا فبابه لعزيز النصر قد فتحا [٢٥]

فانظر لإبريق محرابي تراه به مثل الإمام إذا صلاته افتتحا

ومن نقوشه على قوس الطاقين من البهو ما يشير إلى ارتفاعه وجماله كقوله :

رفعت قوس سماء ترمي من السعد نبلا [٢٦]

ثانيا- بهو الأسود ونافورته patio delosieones

وهو أجمل أجنحة الحمراء أنشاه محمد الغني بالله وهو عبارة عن(فناء مستطيل مكشوف طوله خمسة وثلاثون مترا وعرضه عشرون ،تحيط به من الجوانب الأربع مشرفيات أو أروقة ذات عقود تحملها مائة وأربعة وعشرون عمودا من الرخام الأبيض صغيرة الحجم متناهية في الجمال والرشاقة وعليها أربع قباب مضلعة تقع كل واحدة منها وسط مضلع من إضلاع المستطيل ، وفي وسط الفناء نافورة الأسود) [٢٧] وهي مبنية من حوض مرمري مستدير ضخم يحمله لتنا عشرا أسد على شكل دائرة وجاءت معلقة (ابن زمرك) من اثني عشر بيتا أيضا كل بيت أمام أسد منها ومجمل ما أراد قوله الشاعر إن هذه الأسود رمز الباس والجود مثل ممدوحه (الغني بالله) ومطلعها :

تبارك من أعطى الإمام محمدا معاني زانت بالجمال المغانيا [٢٨]

وإلا فهذا الروض فيه بدائع أبى الله إن يلفي لها الحسن ثانيا

فالحوض المرمري حاكى بالقه وبياضه اللؤلؤ والدر والفضة :

ومنحوتة من لؤلؤ شف نورها تحلي بمرفض الجمان النواحيا

وقد أراد الشاعر في جداريته هذه إن يخلد جمال هذه النافورة لكنه لم يصف مظهرها المرئي بل استثاره فيها ما يحيط بها من دفقة حياة كأن تكون في انسياب الماء وحركته وتشبيهه بالفضة الذائبة والجواهر البراقة :

بذوب لجين سال بين جواهر غدا مثلها في الحسن ابيض صافيا

أو جلسة الأسود وهي رابضة تندفع المياه من أفواهها فكأن هذا الكرم أخجلها وثناها عن أن تكون عادية بتصوير يتناص فيه مع البحتري في تصوير بركة المتوكل :

ويا من رأى الاساد وهي روابض عداها الحيا عن أن تكون عواديا

فالصورة إذن لم تكن ملتقطة بوضعها الثابت في لحظته بل المتحرك في النفوس أي الأثر النفسي الذي استوحاه الشاعر من مجمل العلاقات بين الطبيعة والنفس الشاعرة ،فنافورة الماء تصب في الحوض لكنها لاتفيض ويسوغ بحسن تحليل : لأنها مرة أشبه بدمع محب محتبس خوف الوشاة :

كمثل محب فاض بالدمع جفنه وغيض ذاك الدمع اذ خاف الواشيا

وهي أخرى أشبه بغمامة تمد الأسود بالماء منها السواقي :

وهل هي في الحقيقة غير غمامة تفيض إلى الاساد منها السواقيا

حتى يصل إلى أنها أجدر أن تكون بحق يد الخليفة حين تكرم الشجعان من أسوده المجاهدة :

وقد أشبهت كف الخليفة إذ غدت تفيض إلى أسد الجهاد الاياديا .

ملامح الهندسة العمرانية والفنية

أحاط الشاعر بجملة مقاييس هندسية ومعايير فنية أجملها البحث بالأمور الآتية (الموقع / مواد البناء / القالب)

أولا- الموقع : لا بد لكل بناء من تخطيط مسبق يتوزع فيه العمران بدقة فالقبة كما يشير الشاعر تتقدم القصر مرأى وتكون أول مشهد يرى وكأنها التاج على رأس العروس :

وتقدمت قبلي لبالغ حكمه قد بان منها للعقول دليل [٢٩]

فكأنني خود أريد زفافها فاعدً قبل التاج والإكليل

وأما ما يقابل القصر فهو مشهد(البحيرة) التي تحيط به وتعكس جماله على صفحة مائها كالمرأة :

وأمامي المرأة وهي بحيرة لمحاسني في صفحها تشكيل

واختيار الموقع فريد حيث القصر في اعلي مكان تحفه المياه ولعل الحكمة التي أراد توصيلها الشاعر في اختيار هذا الموقع هي الإطلالة الجميلة والحصن المنيع :

ما إن ترى بيتا مدار غوارب إلا إنا وبحكمتي تأويل

ثانيا- مواد البناء :استطاع البحث إن يستقصي جملة مسميات لمواد الإنشاء منها (الخشب والزجاج والرخام ، فقد جاء النقش الشعري على الأبواب الخشبية والعقود مصورا ما نحت من مثل صورة الإبريق مفردا أحيانا وفوق منبر أو كرسي أحيانا أخرى ولقد جاء في الديوان قبل الأبيات الشعرية ما نصه (ونقشت في الخشب بالبيت من القصر الكبير بدارنا الكريمة .[٣٠] وأما الزجاج فقد أشار إليه وهو يصف القبة ، وقد نقشت أشعاره حول طيقان بهوها كما في قوله :

وأبدى بها أفق الزجاج عجائبا تخط على صفح الجمال وتستملى

-

وهو زجاج ملون فالنور واحد يتخللها لكن الشعاعات متعددة الأطياف فيها المتماثل وفيها المخالف :

تعدد منها اللون والنور واحد فان شئت قل ضدا وان شئت قل مثلا

إما الرخام فقد كانت لنا شواهد عنه حين تناولنا نافورة الأسود ، فمن مرمر جلي حتى لقد شف نوره قوله واصفا (خصه الرخام) في هذه النافورة :

به المرمر المجلو قد شف نوره فيجلو من الظلماء ما كان داجيا [٣٢]

وهذه الصخور المرمرية كانت تجلب من خارج غرناطة يجرها رجال أقوياء لثقلها يقول ابن الخطيب واصفا بناه قصر الحمراء :

وجاءت تجر إليه الصخور عمالقة من كفاة الحشود
إذا جذبوها إليهم حنوا ظهورا ومدوا لها كل جيد

وهو يصرح إن هذه الصخور من مرمر : -

تخير أعظمه مرمرا فجاءوا بكل قوي شديد

ثالثا (القالب)

إن كان الأسلوب عند ابن خلدون ت ٨٠٨هـ هو (المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه) وهو يرجع إلى الصورة الكلية أي (الصورة الذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب)[٣٤] فالشاعر إذن كالبناء والصورة الذهنية عنده كالقالب عند البناء . من هنا تحرى البحث التفنن في صب القوالب البنائية فوجد جملة امور منها :

التقابل في الأوضاع بتواز هندسي دقيق يقول واصفا بناء القصر :

متقابل الأوضاع مرقوم الحلي فيروقك الإجمال والتفصيل [٣٥]

ومنها الاستدارة كاستدارة الأقواس وانحنائها فهي اشبه بالافلاك :

هذي القسي تشابه الافلاكا من صنع من قد شرف الافلاكا [٣٦]

ومنها إقامة الأقواس على أعمدة المرمر في شكل دائري :

وكم من قسي في ذراه ترفعت على عمد بالنور باتت حواليا [٣٧]

ومنها استدارة السواري أي الاسطوانات :

سواري قد جاءت بكل غريبة فطارت بها الأمثال تجري سواريا

وبعد إقامة البناء يأتي التزيين والتجميل ، وما عرف عن أهل الأندلس من حب للجمال وتفنن في التماسة ومنها (الزخارف واللوحات والرسوم والنقوش والآيات القرآنية) ففي سقف قاعة الملوك هناك مثلا (صورة تمثل مجلس القضاة وهم بالعمائم والبرانس)[٣٦] وعلى قمة بهو قمارش زخارف حفرت (على شكل النجوم وزخرفت جدرانها على نفس الطراز)[٣٩] يقول ابن زمرك ذاكرا النجوم وقد نقشت أبياته على جدران قاعة الأختين في بهو القصر : -

تبيت له خمس الثريا معيذة ويصبح معتل النواسم راقيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها ولم تك في افق السماء جواريا
ولو مثلت في ساحتها وسابقت الى خدمة ترضيه منها الجواريا
ولا عجب إن فاتت الشهب في العلى وان جاوزت منه المدى المتناهيا

وحين تزخرف الأقواس في أعاليها بالنجوم فإنها تكون كالا كليل لها :

رفعت قوس السماء مكلل بالنجوم [٤١]

-

وأما البهو فقد فرش بأبهى الحلل التي زادته جلالا وجمالا بوشيها ونسجها :-

وكم حلة قد جللته بحليها من الوشي تنسي ألسابري اليمانيا[٤٢]

ولقد احتل مثال (الابريق) حيزا واضحا من هذه الزخرفة حين نقش على الخشب ، وجاءت صوره متعددة فهو الكرم وعين الماء للسائل

أوما ترى الإبريق في أبوابها وكأنما قصد الخليفة سائل

والأباريق جميلة فهي كالعرائس تجلى :

ولحت مظهر حسن بها الأباريق تجلى [٤٤]

ولانها زينة على الأبواب فهو يصورها بوقوفها وكأنها إنسان بهي ديباجه شعر الشاعر وأن مثلت قاعدة فهي أشبه بكسرى فارس يزينه التاج والتاج هنا أيضا (شعر الشاعر) :

فانظر إلى الإبريق قام ببابه فحففته بالوشي كالديباج [٤٥]

وقد اعتلى الكرسي تحسب انه سلطان فارس قاعدا بالتاج

وتعلو الأباريق أقواس تبدو باستدارتها وكأنها تنحني عليه طالبة برد الماء :

وقسي على الأباريق تحنو تطلب الورد في البرود القراح [٤٦]

ومن هذه النقوش ما اتسم باللون الابيض حاكت زهور الرياض أو محيا الصباح :

فنقوشي تبدو كزهر رياضي وبياضي يحكي محيا الصباح .

أما الهندسة الفنية لهذه النقوش الشعرية فترتبط بطريقة الشاعر وما عرف عنه من (سلاسة الأفكار)[٤٦] وسرعة البديهة مع الإجادة . فان جئنا إلى (التناسب) وهو خصيصة هندسية تنم عن جمال مقصود و نجد التناسب اللفظي في الجناس التام متصدرا القصيدة :

-إنا الروض قد أصبحت بالحسن حاليا تأمل حسني تستفد شرح حاليا

- مظاهري العليا طريقتي المثلا أبى الحسن إن يلفي لها أبدا مثلا [٤٩]

ولقد تسللت المفردات العمرانية في هذه الجداريات ومنها ما هو اخص بمهنة الهندسة وهي(المهندس) مناسبا إياها بالمهندم يقول الشاعر واصفا إبداع الخالق في جمال روض القصر وقد نقشت على الأبواب :

وانظر عجائب حار في إبداعها إحكام كل مهندم ومهندس[٥٠]

ومنها (القباب والبهو والعمدة والسواري والمشور والمنازل والمرمر والبرج والطيقان ...) ومنها ما يخص الإبعاد الهندسية (كالعلو والارتفاع وفوق وقبل وأمام ومكان .) كما في قوله :

ما رأت قبلي العيون مكانا في ارتفاع ونزهة وابتهاج[٥١]

أما التراكيب التعبيرية ، فان الجملة الفعلية غالبا ما كان يتصدرها فعل الأمر لان فيه ترغيبا وتشويقا ودعوة ، وقد تكرر فيها الفعل (انظر) (وتأمل). أما الجملة الاسمية وشبه الجملة فغالبا ما كانت تعبر عن لسان الموصوف وحاله وتكون مطلعا (مظاهري العليا / إنا الروض/ هذه جنة النعيم / إنا تاج كهلال / لي المرقب الاسمي ..) ومن التناسب الهندسي هنا إن تكون الجمل متقاسمة في البيت الواحد :

تبيت له الثريا معيذة ويصبح معتل النواسم راقيا [٥٢]

كما نجد التنوع والتلوين في الجمل الفعلية متوافقا مع تنوع أشكال البناء فمن قبة إلى طوق إلى بهو إلى حوض في حيوية وتفنن وكذا التنوع في الأفعال فمن شرط إلى نفي ومن خبر إلى إنشاء وكما في قوله :

به المرمر المجلو قد شف نوره فيجلو من الظلماء ما كان داجيا [٥٣]

إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها على عظم الإجرام منها لاليا

-فلم نر قصرا منه اعلي مظاهر وأوضح أفاقا وأفسح ناديا

وأما التكرار فمن جملة دواعيه (التفخيم) [٥٤] وهو ما نجده ملائما هنا وبالأخص في قوله

هكذا هكذا تكون المباني طرق الجد غير طرق المزاح [٥٥]

ولو وصلناه بهندسة البناء لوجدنا هذا التكرار واضحا كما في الأعمدة والزخارف والقباب ومنه مثلا قباب فناء الأسود فهي (متماثلة الصنع والزخرف ... ويحمل كل واحدة منها عدد متماثل من الأعمدة)[٥٦] وكما الترابط في البنيان نجد الترابط بين شطري البيت الواحد في أشعار ابن زمرك كما في قوله:

بها البهو قد حاز البهاء وقد غدا به القصرأفاق السماء مباهيا [٥٧]

وكقوله أيضا رابطا بحرف العطف مع الفعل :

وجاذبها برد الهواء نسيمها فصحت هواء والنسيم قد اعتلا [٥٨]

وبحرف العطف مع الضمير : - **بأقصر شكر للإمام محمد فهو الذي بجماله حلاكا**[٥٩]

ومن الباحثين من يرى أن (ابن زمرك) أكثر من يستخدم الربط بالجملة والضمائر ويستعين بحرف العطف من شعراء القرن الثامن .[٦٠]وكما هو الولع بالتزيين في العمران زخرفة ووشيا ونقشا نجد التحسين البديعي كالجناس موافقا لو لوعهم (بتزيين الألفاظ)[٦١] وهو يدل على مهارة وقدرة عند شاعرنا إذ جاء غير متكلف أو ثقيل كما في قوله :

(منازل فيها العيون منازه) فمع تغيير الحرف الأخير جاء المعنى موضحا ما أراده الشاعر من صورة تعجبية ،وقوله أيضا من غير تغيير لفظي بل معنوي :

كم سائل عما حوته أجبته بحر الندى والجود فيها سائل

وأجاد تحسينا بتغيير حركي واحد في قوله :

فيرسل طرف الطرف في ملعب الصبا فيرجع مرتاح المعاطف قد جلى

فنظرة العين لها الميدان الرحب في التملي والمراح كالخيل ترسل في ميدان رحب فتعود بعد رياضتها أكثر نشاطا وخفة وسرورا .أدى الجناس هذا المعنى بمهارة مع التأثير الموسيقى الواضح وإما رد العجز على الصدر فهو تجميلي أيضا ، يذكرنا بالزخرفة والرسوم المتماثلة عوداعلى بدء ومنه مثلا قوله :

سواري قد جاءت بكل غريبة فطارت بها الأمثال تجري سواريا [٦٢]

وقوله :

تشابه جار العيون بجامد فلم ادر أيا منها كان جاريا [٦٣]

فان جئنا إلى الصورة وجدناها أهم معلم هندسي في البناء الفني ولان القصر رمز لمجد بانيه جاءت الصورة الرمزية لتوضح هذا المعنى ومنها رمز (إيوان كسرى) ورمز (معالم مصر ونيلها) فهي قيمة إيحائية تشد المتلقي لما في نفسه من قبول مسبق لهذا الرموز يقول الشاعر :

هيهات ما كسرى وما إيوانه لا يستوي التوحيد والتضليل [٦٤]

ذلك أن هذه المباني علقت بأذهان الناس لميزتها العمرانية وصمودها على البقاء على اختلاف الأزمنة والحقب ، فهو يفاخر بقصر الحمراء هذه المعالم :

إلا أيها القصر المنيف قبابه بشنيل ما النيل المشهر أو قصر[٦٥]

إما الصورة الحركية فكانت تحتشد بالأفعال والمصادر التي تحيل للعمل والبناء (رفعت ، زخرفت، دارت،شاد، تحنو، يشيد، إحكام، إبداع) .

وتأتي الصورة المتضادة بتقابل فني بديع في تصويره هذا القصر بأجوائه الروضية من وفرة ضوء واعتدال نسيم ، وجري ماء فمن مقابلة بين الهواء نقيا طيبا والنسيم عليلا رخيا قوله :

وجاذبها برد الهواء نسيمها فصحت هواء والنسيم قد اعتلا [٦٦]

ومن شواهد المبالغة في تصوير لون المرمر المصقول في حوض الأسود والماء يجري فوقه حيرته في التمييز بين الجامد المتلالى والحي المتحرك :

تشابه جار للعيون بجامد فلم ادر أيا منهما كان جاريا [٦٧]

ولعل أجمل صورة في هذه النقوش ما جاء في صفقة مقايضة الروض للنسيم وكذلك مشهد حوض الأسود وقد تقدم ذكرهما .

ولقد كانت الاستعارة التشخيصية أكثر الوسائل البيانية حضورا في إبراز الصورة الصفية ، ذلك أن الشعر بتعريف (ابن خلدون)هو(الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف)[٦٨]

(فالزهر مبتسم ، والجمال مستفز ، وطرف الطرف مرتاح ، والإبريق قاعد وقائم ، والجوزاء تمد كفها ، والبدر يدنو ، والنجوم تهوى الثبوت ،والنسيم له يدو الروض له حجر .... وهكذا ...)

فمع أن المنقول عنه أي المصور لنا هو عمران ساكن ببنائه فقد جعله (ابن زمرك) حيا بما أضفاه عليه من صور حركية واستعارات ورموز ولكانه بهذا أراد له البقاء ، يتنقل الزمن به وهو ثابت مكانا متحرك أثرا فيما نقله لنا بأساليب وتراكيب وصور متفننة في نقوشه ومعلقاته الجدارية ينقل لنا زائره (محمد عبدالله عنان) بأسى وحزن ما تبقى من معالمه بعد إن شاهده وقرا قسما من هذه النقوش الشعرية بأنه (يبدو بعقوده وسقوفه ذات الزخارف البديعة وأعمدته الرخامية الرشيقة وأناقته المتناهية من أجمل ما تقع عليه العين من الصروح الاثريه وهو مشرق منير يغمره الضوء والهواء ، بيد إن مما يستر عي النظر إن هذا الإشراق تطبعه لمحة من الأسى والكآبة يحس بها المتأمل في جنباته الصامتة وكأنه إنما يرتد في حسرة واسى إلى عهد السيادة والعزة أيام أن كان قاعدة الملك لمملكة عظيمة)[٦٩]

خلاصة البحث:

وجد البحث بعد التعريف بقصر الحمراء ومكانته إن مشاهد الجداريات الشعرية فيه كانت حافلة بالملامح العمرانية وبصيغ تعجبية من ذكر للموقع ومواد البناء والقوالب والزخارف . وكان للمفردات الهندسية كالإبعاد مثلا في هذه الإشعار حضور فاعل من مثل المساحة والاتجاه والمسافة والارتفاع . وبعد تأمل الجانب العمراني توجه البحث إلى الهندسة الفنية في هذه الجداريات فوجد ما يماثل العمران من تناسب في القول ، وتقابل، وترابط ، وتقسيم وتنوع في الصور والألوان والأساليب والتراكيب . وتوقف البحث عند الصورة الرمزية والحركية والمتضادة ووجد أن الاستعارة التشخيصية هي الأبرز لان الشاعر أراد لهذا البناء إن يبقى حيا متحركا في مخيلة القاري وان مر به الزمن وتقلبت به المحن.

الحواشي والتعليقات:

١- بنظر ديوانه ، المقدمة :٢٦ تحقيق محمد توفيق النيفر ، دار العرب الإسلامي بيروت ١٩٩٧. وبنظر أيضا أزهار الرياض للمقري ١٦/٢ وكتاب (شاعر الحمراء)غرسيه غومس (بالاسبانية)

٢- وذلك في قوله بإحدى مقطوعاته :

لله مرقب تاجي من فوق تاج السبيكة

ديوانه :١٣١

٣- بنظر ديوانه :١١٦

٤- مجلة دراسات أندلسية ، تونس ، ندوة غرناطة كلمة (خالد العنقري)ص٢٤ ع ٣١ س ٢٠٠٤

٥- القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري ، د. عبد الحميد عبد الله الهرامة ٣٠٤/٢ ط ١٩٩٦

٦- ديوانه:١٢٦

٧- م.ن١٢٧

٨- م.ن١٢٦

٩- م.ن١٣١

١٠- م.ن٣٠٦

١١- مجلة دراسات أندلسية :٢٦عدد٣١سنة ٢٠٠٤ولقد نقشت جملته على لوحة وضعت في حديقة الدرب بقصر الحمراء.

١٢- ينظر ، نهاية الأندلس ، محمد عبدا لله عنان : ٢٨٨-٣٠٤ ط القاهرة ١٩٨٧ .

١٣- مجلة دراسات أندلسية (قصر الحمراء في عيوننا وعيون الأخرين د. جمعة شيخه : ٦٠ ع ٣١ س ٢٠٠٤ نقلا عن (قصر الحمراء لواشنطن ترجمة إسماعيل العربي بيروت ١٩٨٥)

١٤- نهاية الأندلس : ٢٩٠ وينظر المغرب لابن سعيد ١٢٥/٢

١٥- ديوانه : ٨٢ تحقيق عبد الله كنون ،تطوان ١٩٨٥

١٦- ديوانه : ٥١

١٧- نهاية الأندلس :٢٩٠

١٨- م. : ٣٠٠

١٩- ديوان ابن زمرك (المقدمة) : ٢٦

٢٠- ينظر نهاية الأندلس : ٢٩٤

٢١- ديوانه : ١٢٥ وعن عملتهم يقول ابن الخطيب (وصرفهم فضة خالصة وذهب إبريز) الاحاطة ٣٩/١ تحقيق د. يوسف على طويل دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٣

٢٢- نهاية الأندلس :٢٩٤

٢٣- ديوانه :١٢٥

٢٤- م.ن :٣٠٦ وهو مقتبس من سورة الملك :٤٤

٢٥- م.ن :١٢٩

٢٦- م.ن١٣١

٢٧- نهاية الأندلس :٢٩٦

٢٨- ديوانه :١٢٩

٢٩- م.ن :٣٠٧

٣٠- م،:٣٠٦

٣١- م.ن١٢٦

٣٢- م.ن١٢٥

٣٣- ديوان ابن الخطيب ٢٦٤/١ تحقيق محمد مفتاح دار الثقافة البيضاء ١٩٥٩

٣٤- مقدمة ابن خلدون ٧٤٠/٢ طبعة دار التونسية ، تونس ١٩٨٤

٣٥- ديوانه :٣٠٦

٣٦- م.ن١٢٧

٣٧- م.ن١٢٥

٣٨- نهاية الأندلس :٤٥٠

٣٩- م ٢٩٤

٤٠- ديوانه :١٢٥ وينظر (الاثار الاندلسية الباقية في اسبانيا و البرتغال) محمد عبد الله عنان : ١٦٧ ط مصر القاهرة ١٩٥٦

٤١- ديوانه : ١٠٧

٤٢- م.ن :١٢٥

٤٣- م.ن ١٣٠
٤٤- م.ن١٣١
٤٥- م.ن١٢٨
٤٦- م.ن١٥٧
٤٧- القصيدة الاندليسة :٢٨٨
٤٨- ديوانه١٢٥
٤٩- م.ن ١٢٨
٥٠- م.ن١٣٠
٥١- م.ن ٣٠٩
٥٢- م.ن١٢٥
٥٣- م.ن الصفة نفسها
٥٤- ينظر العمدة لابن رشيق القيروني : ٢/ ٧٤ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط دار الجيل بيروت ١٩٧٢
٥٥- ديوانه : ١٥٦
٥٦- الآثار الأندلسية الباقية :١٦٨
٥٧- ديوانه : ١٢٥
٥٨- م.ن ١٢٦
٥٩- م.ن١٢٧
٦٠- القصيدة الأندلسية :٣٢٩
٦١- مقدمة ابن خلدون ٧٢٠/٢
٦٢- ديوانه :١٢٥
٦٣- م.ن ١٢٩
٦٤- م.ن٣٠٦
٦٥- م.ن١١٦
٦٦- م.ن١٢٦
٦٧- م.ن١٢٩
٦٨- مقدمة ابن خلدون ٧٤٣/٢
٦٩- الآثار الأندلسية الباقية :١٦٢

Poetic walls in Al-Hamraa palace -Analytical study-

Dr. Hameeda S. AL-Baldawy
Arabic language Dept. -College of Education for Women -Baghdad University

Abstract:

Al-Hamraa palace considers one of the most important urban traces that the Arab left behind in Andalus .Muhammed bin Al—Ahmer put its fist stones then it was finished later by his thrown hirer .The poems of (ibn-Zumrek)were graved on the palaces doors ,halls, and lion cages with all the proud and dignity those poems contain.

This search identifies this palace first, then studies the contents of the poems on Walls ,then the Urban features, and description of the palace sites ,buildings materials ,pillars ,decorations, and the geometrical

Vocabularies in the poems such as spaces , direction ,distance ,and height.

Then the search describes the technical engineering of words coordination, the meeting , comprehension, division and varieties in the colors , pictures, methods and structures .

The symbolic , opposite ,motional pictures were discussed also, it was found that the diagnostic metaphor is the most famous one because this palace was supposed to live in the memory of the reader in spite of age and hard times .